## الشركس والترحال المستمر

علي أبو راشد

خلال الحصار الإسرائيلي على مخيم جنين وعلى مقر السلطة الوطنية الفلسطينية في رام الله، زراني جد زوجتي وهو شركسي قادماً من حلب ليقضي معنا بضعة أيام، وليقوم بزيارات لأصدقائه وأقاربه الشركس في دمر قدسيا. لم أرافقه كالعادة لأن هذه الأحداث حتمت على واجباً وطنياً تجاه شعبنا الفلسطيني سواء بالخروج في المظاهرات أو الاعتصام أمام مقر هيئة الأمم المتحدة، ولكننا نجتمع سوياً مساءً أمام التلفاز.

عندما شاهد العجوز القوقازي كيف اقتحمت القوات الإسرائيلية مخيم جنين وارتكبت أبشع الجرائم اللاإنسانية ،اغرورقت عيناه الشركسيتان الحادتان بالدموع وتغيّرت ملامح وجهه وتذكّر جروحاً وآلاماً لمآسٍ قديمة منسية أكل الزمن عليها وشرب. تذكّر الجرائم الدموية التي ارتكبت بحق الشركس وحدّثنا عنها باللهجة الحلبية المكسرة يتخللها بعض الكلمات الشركسية التي ترجمتها لي زوجتي :

حدثني جدي عندما كنت شاباً أن المشكلة الشركسية بدأت في القرن الخامس عشر مع العثمانيين الذين أرادوا الوصول إلى تركستان عن طريق شمال القوقاز، ومع الروس في القرن السادس عشر الذين أرادوا الوصول إلى المياه الدافئة والسيطرة على الممر البري التجاري بين الصين وأوروبا وبين الهند وأوروبا عبر القوقاز.

في سنة ١٨٥٩ حشدت القوات الروسية ٢٨٠ ألف جندي بقيادة الجنرال الفاشي كراندوك لسحق ثورة المريدين بقيادة الإمام شامل وقضت عليها واستلم من بعده الإمام محمد أمين الثورة وأيضا قضت عليها.

قاوم الشركس بشجاعة على جبال القوقاز الثلجية وأصبحت دمائهم سيولا جارفة تصب بالسهول والأودية القوقازية، وأجسادهم جدرانا لحماية الوطن، حين انكسرت السيوف.

ولكن للأسف، استطاع الروس أن ينتصروا على المقاومة لا لشجاعتهم بل لتفوقهم النوعي بالعدة ولفاشيتهم. أحرقوا كل أخضر ويابس ومثّلوا بالجثث وهدموا المساجد. وفي سنة ١٨٦٤ أصبح كل شمال القوقاز تحت الاحتلال الروسي الذي وضعهم أمام خيارين: إما أن يتحوّلوا الى الأرثوذكس أو يخرجوا من أراضيهم. رفضوا تغيير دينهم، فما كان أمام مليون شركسي سوى الهجرة بواسطة قوارب قديمة عبر البحر الأسود إلى الأراضي العثمانية والشواطئ التركية والبلغارية.

وبعد سنة ١٨٦٦ دفع الروس مليون و٤٠٠ ألف شركسي إلى الهجرة عن طريق البر، أسكن قسما منهم على الحدود القريبة من روسيا والبعض الآخر بين الحدود التركية والبلغارية وفي أضنه في سيحان وجيحان. وهُجر قسم آخر إلى العراق إلى ماردين وكربلاء وبلاد الشام إلى منبج وحلب وعمان والكرك والطفيلية. ومن جراء هذا التهجير القسري تعرضوا للجوع والتشرد وقتل ٣٠٠ ألف مهاجر لطخت دمائهم الطرقات الطويلة. ولم يصل سوى مليون و١٠٠ ألف مهاجر.

في سنة ١٨٧٧ جرت حرب بين الروس والعثمانيين وثار الشركسي بقيادة الحاج علي بك علي الروس. وكان ثمن هذه الحرب والثورة الترحيل الثاني. وأجبر الروس العثمانيين على تهجير ١٥٠ ألف شركسي من البلقان الى الأناضول وبلاد الشام. وكان نصيب حلب ودمشق ١٥ ألف مهاجر وأضنه ٥

Großsyrien. Auf der Flucht verloren 300 000 Tscherkessen in Hunger und Not ihr Leben. Ihr Blut markierte ihre langen Wege. Es kamen nur 1,1 Millionen Emigranten an.

1877 kam es zu einem Krieg zwischen Russland und der Türkei, während die Tscherkessen unter der Führung von Ali Bek erneut gegen die Russen revoltierten. Folge und Preis der Revolution war eine weitere Deportationswelle. Die Russen zwangen die Osmanen, 150 000 Tscherkessen aus dem Balkan nach Anatolien und Großsyrien zu vertreiben. Damaskus und Aleppo nahmen 15000 Tscherkessen auf, nach Adna gelangten 5 000 Emigranten. Einige Familien wurden nach Kfar Lamma und Al-Rihaneh in Palästina deportiert. 1948 führte der Krieg in Palästina zu ihrer Umsiedlung auf die Golanhöhen – mit Ausnahme einer Familie, die ins Westjordanland deportiert wurde. Im Juni 1967 besetzte Israel den Rest Palästinas sowie den Golan. So mussten die Tscherkessen nach Bir Ajam fliehen."

Der Alte fragte mit flüchtigem Blick: „Was wird nun aus der tscherkessischen Familie, die damals ins Westjordanland deportiert wurde? Hat die israelische Armee auch ihr Haus zerstört und wie lange soll die ewige Vertreibung noch dauern?"



آلاف مهاجر. وهُجرت بعض العائلات إلى كفر لما والريحانية في فلسطين. أدّت حرب عام ١٩٤٨ في فلسطين إلى تهجيرهم إلى الجولان، باستثناء عائلة واحدة هُجرت إلى الضفة الغربية. وفي حزيران ١٩٦٧ احتلت إسرائيل باقي فلسطين والجولان، ونزحوا مرة أخرى من الجولان إلى منطقة بئر عجم.

وأخيراً شرد العجوز وقال : ما مصير العائلة الشركسية التي هُجرت إلى الضفة الغربية! هل القوات الإسرائيلية دمروا بيتها وسيستمر ترحالها من جديد؟